جامعة محمد الأول، وجدة

الكلية متعددة التخصصات، الناظور

شعبة الفلسفة

الفصل الأول

محاضرات وحدة

مناهج علم النفس

إعداد الأستاذ محمد الشقيف

السنة الجامعية: 2020-2021

محاور المحاضرات

المحور الأول– العلم والروح العلمية

I– العلم

II– المنهج العلمي

ثانيا: مناهج علم النفس

I– المنهج الذاتي

II– المنهج التجريبي

III– منهج المقابلة الشخصية

IV– المنهج العيادي (الاكلينيكي)

أولا– العلم والروح العلمية

I– العلم

بالمعنى العام، فالعلم إما مرادف للمعرفة، وهذا أيضا معناه اللغوي، أو هو ما يوجه سلوك الفرد على نحو ملائم، مثلما هو الشأن بالنسبة للمعرفة الصادقة الواضحة، كعلمي بأن هذا الطريق هو الذي يقودني إلى مدينة الرباط، أو هو مرادف للأهلية التقنية التي يمتلكها الفرد، كعلمه بكيفية تشغيل آلة يتقن بها صناعته.

أما عند المناطقة، فهو مطلق الإدراك، وهو يتدرج من الوهم، إلى الشك، فالظن، ثم اليقين، وما دونه الجهل، وهو إما تصور يكتسب بالحد، أو تصديق يكتسب بالقياس.[1]

وأما في عرف الفلاسفة، فقد تراوح تعريف العلم بين الأخذ بمعناه الواسع ومعناه الضيق. فهذا رودولف كارناب **Rudolf Carnap**، قد استعمل لفظ "العلم" في «معناه الأوسع، وهو بذلك يتضمن كل معرفة نظرية، سواء كانت تنتمي إلى حقل العلوم الطبيعية أو إلى حقل العلوم الاجتماعية أو ما يسمى بـ"الإنسانيات"، بحيث تكون هذه المعرفة محصلة بمناهج علمية خاصة أو تكون قائمة على الحس المشترك للحياة اليومية.»[2] أما أندري لالند **André Lalande**، فقد عرفه بأنه «مجموعة المعارف والأبحاث التي وصلت إلى درجة كافية من الوحدة والعمومية، قادرة على أن تقود أولئك الذين كرسوا أنفسهم لها إلى نتائج متسقة، نتائج لا تنشأ عن الأعراف الاعتباطية المشتركة بين الأفراد ولا عن أذواقهم ومصالحهم المشتركة، وإنما عن العلاقات الموضوعية التي يتم اكتشافها تدريجيا، ويتم تأكيدها من خلال مناهج تَحقُّقٍ محددة»[3]. وأما برتراند راسل **Bertrand Russell**، فقد أخذ العلم بأنه «محاولة عن طريق الملاحظة والاستدلال لاكتشاف حقائق بشأن وقائع معينة في العالم، ثم اكتشاف القوانين التي تربط هذه الوقائع بعضها مع بعض، والتي تسمح (في الحالات المواتية) بالتنبؤ بأحداث مستقبلية. وترتبط التقنية العلمية بهذا الجانب التقني للعلم، الذي يستخدم المعرفة العلمية لإنتاج شروط الراحة والرفاه.»[4].

وأما بمعناه التقني الضيق، يقصد بـ"العلم" مجموعة "العلوم الدقيقة"، مثل الرياضيات والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وعلم الفلك وغيرها مما يصنف في خانة "العلم بالمعنى الدقيق"، وذلك في مقابل الآداب والفلسفة والفنون من جهة،

---

[1]– ابن سينا، كتاب النجاة في الحكمة المنطقية، ص 17

[2] –Rudolf Carnap : Fondements logiques de l'unité de la science, In : Romantisme, 1978, n 21–22, Les positivismes, pp.79–88, p. 80.

[3] –André Lalande : Vocabulaire technique et critique de la philosophie, Puf, Paris, 2010.

[4] – Bertrand Russell : Science et religion, tr. de Philippe–Roger Mantoux, Gallimard, Paris, 1990, P. 7–8.

وكذلك العلوم الإنسانية أو الاجتماعية، مثل علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والأنثروبولوجيا واللسانيات وغيرها من جهة أخرى.

بناء على هذه التعريفات للعلم، يمكننا الوقوف على مجموعة من أهم خصائص التفكير العلمي، تميزه عن ضروب التفكير الأخرى، وهي طريقة أخرى لتعريف هذا النمط من المعرفة، تعريفه بأهم خصائصه، وهي:

- التنظيم: يتصف الفكر العلمي بالنسقية، لذلك يشترط في كل ممارسة علمية أن تستوفي شرط التنظيم المنهجي للأسئلة ولمفاهيم والأفكار (الفرضيات والنتائج) والقوانين، وأن تتناول الموضوعات التي تتناولها تناولا منظما (على مستوى الملاحظة والتجربة أو على مستوى الاستدلال العقلاني). فالفكر العلمي فكر منهجي نسقي منظم.

- الدقة: يتسم الفكر والممارسة العلميان بالدقة، وتتجلى هذه الدقة على عدة مستويات؛ بدءا من دقة الملاحظة ونقلها الموضوعي، ودقة طرح المشكلات، فدقة صياغة الفرضيات، ودقة تعريف المفاهيم، ودقة اللغة المستخدمة في هذه الصياغة، ودقة اختبار الفرضيات، ودقة صياغة القوانين، ودقة الاستدلال الرياضي أو دقة الاستقراء. وقد لجأت أغلب العلوم في طلبها لهذه الدقة إلى اللغة الرمزية بدل اللغة الطبيعية، خاصة لغة الرموز والأرقام، كما استبدلت اللغة الكمية باللغة الكيفية.

- التعميم: إذ لا يهتم الفكر والممارسة العلميان بالظواهر في صورها الخاصة والفردية، وإنما بصورها العامة التي تحكمها في كل حدوث لها في العلم بعض النظر عن الزمان والمكان. لذلك فالقانون الذي ينتهي إليه العالم لا يخص هذه الظاهرة التي تحدث هنا فقط، وإنما يخصها حيثما تحدث. ويرتبط التعميم بعمليتين أخريين ترتبطان به، هما الصورية **formality** والتجريد **abstraction**. أما الصورية فتعني أن العلم لا يبقي من المعرفة بالظواهر إلا على بينيتها المنطقية، أو شبكة العلاقات الرياضية التي تربط بينها، وكلما زادت درجة صورنة لغة العلم كلما زادت إمكانية تعميم قوانينه. وأما التجريد فيراد به استبعاد الخصائص الفردية للظواهر والإبقاء على ما هو مشترك بينها فقط، حتى تسهل عملية التعميم. كما يرتبط التعميم في العلم بمبدأ أساسي هو مبدأ اطراد الطبيعة **uniformity of nature**، ومفاده أن الطبيعة تحافظ على نظامها وتثبت على قوانينها في المستقبل، وعلى أساس هذا المبدأ، إضافة إلى مبدأ السببية **universal causality**، يتم التنبؤ بالأحداث المستقبلية بناء على توفر أسبابها ومعرفتنا لقانونها.

- إمكانية التحقق التجريبي أو اتساق البناء الرياضي: وهذان في الحقيقة معياران باستيفائهما تكتسب النظرية صفة العلمية، وإلا صنفت خارج نطاق العلم؛ فلا بد لهذه النظرية (بكل عناصرها) أن تكون قابلة للتحقق التجريبي، أو أن تكون عناصرها مكوناتها مطابقة لمعطيات التجربة، أو أن تكون هذه النظرية من الاتساق والتماسك والانسجام بين مكوناتها بحيث يرتفع عنها كل تناقض، أي أن تلتزم بشروط وقواعد الاستنباط الرياضي المنطقي.

● الموضوعية: وهي عند أغلب العلماء مرادف للعلمية، ومعنى الموضوعية **objectivity** أن يكون الحكم العلمي (سواء كان ملاحظة أو فرضية أو نتيجة مستمدة من التجربة أو قانونا أو فكرة أو وصفا أو تفسيرا أو غيرها) صادرا عن الموضوع وفي استقلال عن أحكام الذات وآرائها وعواطفها وقيمها الخاصة. وهي نقيض للذاتية **subjectivity**، وهي أن تتدخل الذات بأحكامها الخاصة في صياغة الحكم العلمي. وكانت الموضوعية من شروط العلمية لأنها تضمن وحدة الحقيقة العلمية واستقلالها عن الذوات التي تكتشفها، حتى لا يكون لكل عالم حقيقته، فلا تقوم بذلك جماعة علمية.

● مبدأ التقدم: سواء اعتبرنا العلم معرفة تراكمية (بحيث أن كل عالم يبدأ من النقطة التي انتهى إليها عالم آخر)، أو اعتبرناه معرفة تحكمها الثورات والقطائع (أي أن كل نظرية علمية تقوم على أنقاض نظرية أخرى بعد أن تكذبها أو تفندها)، فإن العلم سيرورة تاريخية لا تتوقف، وكل حقيقة علمية يتم اكتشافها تبقى حقيقة نسبية ناقصة ومؤقتة، لا حقيقة مطلقة ونهائية، وهي تنتظر في كل وقت إما تطويرها بكشف جوانب أخرى من الموضوع المتعلقة به، أو بتفنيدها وإحلال حقيقة أخرى محلها، فالعلم بناء مستمر.

● الأخذ ببعض المبادئ غير المبرهن عليها: وهي مسلمات لا يقوم العلم بدون الاعتراف بها دون طلب برهان عليها، وإنما تؤخذ كمقدمات للبراهين، أو أوليات لا نرتد بعدها إلى مقدمات قبلها، مثل مبادئ الحتمية والسببية واطراد الطبيعة.

II- المنهج العلمي

في اللغة العربية، وإذا عدنا إلى "لسان العرب" لابن منظور، وجدنا المنهج مرادفا للوضوح والبيان أو الطريق البين، يقول ابن منظور: «طريقٌ نَهْجٌ: بَيِّنٌ واضِحٌ، وهو النَّهْجُ...والجمعُ نَهجاتٌ ونُهُجٌ ونُهوجٌ...وسبيلٌ مَنْهَجٌ :كَنَهْجٍ. ومَنْهَجُ الطريقِ: وضَحُه. والمِنهاجُ: كالمَنْهَجِ. وفي التنزيل: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومِنْهاجاً﴾. وأَنهَجَ الطريقُ: وضَحَ واسْتَبانَ وصار نَهْجاً واضِحاً بَيِّناً. والمِنهاجُ: الطريقُ الواضِحُ. واسْتَنْهَجَ الطريقُ: صار نَهْجاً...ونَهَجْتُ الطريقَ: أَبَنْتُه وأَوضَحتُه...ونَهَجتُ الطريقَ: سَلَكتُه، وفلانٌ يَستَنهِجُ سبيلَ فلانٍ أَي يَسلُكُ مَسلَكَه. والنَّهْجُ: الطريقُ المستقيمُ.»[5]

ولا تبتعد التعريفات الفلسفية والتقنية للمنهج عن معناه اللغوي، فقد عرفه أندري لالند كالآتي: «**1**- المنهج اشتقاقا هو "السعي"، ومن ثم فهو الجهد المبذول من أجل نيل غاية معينة. ثم إن المنهج هو البحث والدراسة، ولذلك كان له

[5]- ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ص. 4554-4555.

عند المحدثين معنيان متقاربان رغم أنهما متمايزان، وهما: أ– المنهج هو الطريق الموصل إلى نتيجة معينة... وقد جاء تعريفه في "منطق بور رويال" [بمعنى الترتيب]. "ويقصد بالترتيب هنا فعل العقل الذي يتم به ترتيب مجموع أفكاره وأحكامه واستدلالاته المختلفة حول موضوع معين على الوجه الأفضل بحيث تتسنى له معرفة هذا الموضوع. وذلك ما نسميه أيضا المنهج. ويتم كل ذلك على نحو طبيعي وربما سار بشكل أفضل عند أولئك الذين لم يتعلموا أية قاعدة من قواعد المنطق مقارنة بأولئك الذين قد تعلموها."...ب– المنهج هو الخطة الناظمة قبليا لسلسلة من العمليات التي تنتظر الإنجاز، وهي الكفيلة برصد بعض الأخطاء اللازم تجنبها، وذلك بهدف الوصول إلى نتيجة محددة. وقد ذهب ديكارت في كتاب "مقالة في المنهج" إلى أن "هناك اعتبارات وحِكما قد صغت من خلالها منهجي، ذلك الذي يبدو لي من خلاله أن لي وسيلة لتنمية معرفتي درجة درجة، صعودا بها شيئا فشيئا، وصولا إلى أعلى نقطة يمكن أن تتاح لي رغم ضعف عقلي وقصر عمري. 2– المنهج هو طريقة تقنية منظمة يتم بها الحساب أو التجريب.»[6]

ولئن كانت المعارف والعلوم تتعدد بتعدد موضوعاتها والمجالات التي تنتمي إليها، فإن المشترك بين كل معرفة مبنية، علمية كانت أو فلسفية (وهنا نستبعد المعرفة العامية التلقائية، بما هي معرفة لا تعتمد في الغالب على منهج مفكر فيه مسبقا)، هو أنها معرفة منظمة بمنهج مفكر فيه، بخطوات واضحة هي الكفيلة ببلوغ النتيجة المطلوبة، وذلك بغض النظر عن طبيعة هذا المنهج ونوعية خطواته وعددها. ولنا في تاريخ الفكرين الفلسفي والعلمي ما يشهد على تعدد المناهج بتعدد الاتجاهات الفكرية المكونة لهذا التاريخ. لقد كان المنهج التوليدي عند سقراط (أو منهج إلينخوس **elenkhos** أو الجدل السقراطي أو المايوتيك **maïeutique**) طريقا يساعد النفوس على تذكر المعرفة التي كانت لها عندما كانت بجوار الآلهة، قبل أن تسقط إلى الأرض وتلتحم بالبدن وتنسى ما عرفته في عالم الخلود. ولقد كان الجدل الصاعد **la dialectique ascendante** عند أفلاطون طريقا لترقي النفس درجة درجة من العالم الحسي (عالم الظلال والأشباح) إلى العالم العقلي الخالص (عالم المثل أو الحقائق الموضوعية المطلقة). ولقد كان "أورغانون **Organon**" أرسطو آلة العلم التي رفض المعلم الأول اعتبارها علما بذاته، بل عَدَّها آلة يحتاجها كل علم، نظريا كان أو عمليا، حتى تستقيم ممارسته ويتجنب أصحابه الزلل والخطأ. وقد حكم منطق أرسطو الفكر الفلسفي (وضمنه العلمي) قرونا إلى أن وُلد "أورغانون جديد **Novum Organum**"، أورغانون فرنسيس بيكون ينتقد "آلة أرسطو" التي روحها القياس، ويقترح أخرى قائمة على الاستقراء، هذا وصفه: «لما كان منهجي التفسيري لا يقتصر على عمل العقل وخطابه فحسب (كما يفعل المنطق الشائع)، بل يشمل أيضا طبائع الأشياء، فقد زودت العقل بقواعد وتنظيم بحيث يُعمِل نفسه في كل شأن على نحو ملائم لذلك الشأن. ولهذا فقد قدمتُ قواعد كثيرة ومتنوعة في مذهبي التفسيري بحيث تُكيف منهج الكشف –بدرجة ما– وفقا لنوعية موضوع البحث وحالته.»[7] وقد دعا بيكون بدوره لأن يكون هذا

---

[6] –André Lalande : Vocabulaire technique et critique de la philosophie, p. 23–25.

[7]– فرانسيس بيكون: الأورغانون الجديد، إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة، ترجمة عادل مصطفى، دار النشر هنداوي، المملكة المتحدة، 2018، ص. 79.

المنهج، والذي يعرف اليوم بـ"المنهج التجريبي **la méthode expérimentale**"، منهجا لكل العلوم بغض النظر عن نوعية الموضوعات التي تتناولها، طبيعية كانت أو إنسانية.

ولم يكن بيكون الفيلسوف الوحيد الذي اجتهد في ابتكار منهج جديد يند عن قواعد القياس المنطقي الأرسطي، فهذا ديكارت بعده قد وصف تلك القواعد بالعقيمة والكثيرة، التي لا تفيدنا في تعلم أشياء جديدة بقدر ما تعيننا على أن نشرح لغيرنا من الناس ما نعرفه منها، ولذلك اقترح منهجا جديدا مؤلفا من أربع قواعد، إذا التزمنا بها، ضمنت لنا في نظره بلوغ الحقيقة وجنبتنا من الوقع في الخطأ، وهي قواعد الشك والتحليل والتركيب والإحصاء.[8]

وما أن شرعت العلوم في الاستقلال عن الفلسفة، حتى دأب العلماء على تمييز مناهجهم عن المناهج الفلسفية، فبدأ الحديث عن "المنهج العلمي" كطريقة خاصة في الدراسة تختص بها العلوم، خاصة الطبيعية منها، لتمييزه عن المناهج الفلسفية أو غيرها، كمنهج الاستبطان مثلا. ولقد كان يقصد بهذا المنهج في غالب الأحيان المنهج التجريبي، مثلما وضع أسسه فرانسيس بيكون وطوره علماء آخرون بعده، ولذلك يمكننا أن نجد وصفا لهذا المنهج عند المعاصرين مثل هنري بوانكاريه، إذ يعرفه كالآتي: « يتمثل المنهج العلمي في الملاحظة والتجريب».[9] ويشرح لنا برتراند راسل عناصر هذا المنهج بالقول: «لكي نصل إلى قانون علمي يجب أن نمر بثلاث مراحل رئيسية: الأولى، ملاحظة الوقائع ذات الدلالة، والثانية، الوصول إلى فرض يفسر هذه الوقائع إن صح، والثالثة، أن نستنبط من هذا الفرض بطريق القياس نتائج يمكن اختبارها بالملاحظة. فإذا تبينت صحة النتائج، قُبل الفرض مؤقتا على أنه فرض صحيح، وإن كان في العادة يحتاج إلى إجراء تعديل فيه فيما بعد، نتيجة لكشف حقائق جديدة.»[10]

وإلى جانب المنهج التجريبي الذي أخذته معظم العلوم الطبيعية طريقا موصلا إلى تفسير الوقائع التي تدرسها وصياغة القوانين التي تحكم هذه الوقائع، فقد أخذت الرياضيات والمنطق بمنهج آخر يناسب طبيعتهما كعلمين عقليين نظريين، وهو المنهج الاستنباطي، بما هو منهج ينتقل فيه الذهن من قضية أو عدة قضايا تكون هي مقدمات الاستدلال (قد تكون بديهيات أو مسلمات) إلى قضية أخرى تكون بمثابة نتيجة، اعتمادا على قواعد منطقية خالصة، أو هو الطريقة القائمة على «التسلسل المنطقي المنتقل من مبادئ أو قضايا أولية إلى قضايا أخرى تستخلص منها بالضرورة، دون التجاء إلى التجربة، وذلك في مقابل المنهج الاستقرائي أو التجريبي القائم على الملاحظة والتجربة.»[11]

---

[8]– **René Descartes** : **Discours de la méthode**, **Librairie Générale Française**, **Paris**, **2000**, **p. 88–90**.

[9] – **Henri Poincaré** : **Science et méthode**, **Flammarion**, **paris**, **1947**, **p. 1**.

[10]– برتراند راسل، النظرة العلمية، ترجمة عثمان نويه، دار المدى للثقافة والنشر، **2008**، ص **51–52**.

11– عبد الرحمان بدوي: مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، ط. **3**، الكويت، **1977**، ص. **82**.

غير أنه لا ينبغي المبالغة في تقدير الاختلافات بين مناهج العلوم، فالحال أن روحها واحدة، وإن العلم الواحد قد يلجأ إلى مجموعة من المناهج بحيث يكون الفصل بينها مستحيلا في تكوين العلم الواحد، ولذلك ذهب كلود برنار، أحد دعاة المنهج التجريبي إلى «أن الاستقراء والاستدلال (أي الاستنباط) لا يكونان نوعين من البرهان متمايزين من حيث الجوهر. فإن في عقل الإنسان بطبعه شعورا أو فكرة عن مبدأ يحكم الأحوال الجزئية، ويسير دائما، وعلى نحو غريزي، من مبدأ أحرزه أو اخترعه بواسطة الفرض؛ ولكنه لا يستطيع مطلقا أن يسير في البراهين إلا بواسطة الأقيسة، أي بالسير من الكلي أو العام إلى الجزئي أو الخاص.»[12] وهذا ما يؤكده هنري بوانكاريه أيضا، صاحب المذهب الحدسي، الذي لم يمنعه تعريفه للمنهج العلمي بأنه قائم على الملاحظة والتجربة، وقوله إن العقل الرياضي عقل خلاق ومبدع، لم يمنعاه من القول إن روح المنهج واحدة بين الفيزياء والرياضيات، رغم أن طرق الاستدلال فيهما تختلف، هذا رغم أنه غلَّب روح المنهج التجريبي على المنهج الاستنباطي ورد الأخير إلى الأول: «فمناهج البرهنة **les méthode de démonstration** ليست واحدة عند كل من الفيزيائي والرياضي. أما مناهج الكشف **les méthodes d'invention** فهي تتشابه كثيرا. ففي الحالات كلها تتمثل هذه المناهج في الصعود من الواقعة إلى القانون والبحث عن الوقائع القابلة لأن تقود إلى قانون معين...صحيح أن عقل الرياضي عقل خلاق ومبدع، ولقد بنى العالِم الهندسي مفهوم المكان الذي أصبح عندنا مفهوما تلقائيا...ولكن في عملية البرهنة ذاتها، ليس المنطق كل شيء؛ إن الاستدلال الرياضي الحقيقي إنما هو استقراء حقيقي، يختلف بأشكال عدة عن الاستقراء الفيزيائي، ولكنه يسير مثله من الخاص إلى العام.»[13]

---

[12]– –كلود برنار: المدخل لدراسة الطب التجريبي، أورده :عبد الرحمان بدوي: مناهج البحث العلمي، ص. 12.

[13] –**Henri Poincaré** : **Science et méthode**, **Flammarion**, **paris**, **1947**, **p. 309–310**.

ثانيا: مناهج علم النفس

مثل بقية أنماط المعرفة، وإذا أردنا استعارة عبارات أوغست كونت، فقد كان لزاما أن يمر التفكير في السلوك الإنساني والظواهر النفسية من الطور الخرافي اللاهوتي إلى الطور الميتافيزيقي التأملي إلى الطور الوضعي العلمي. ولئن كانت سلوكات الفرد وحالاته النفسية (السوية منها وغير السوية) في الطور الأول تفسَّر بردها إلى قوى خارقة للطبيعة، كالمس الشيطاني وتأثير الجان ومباركة الآلهة ورضاها، فإن الإنسان قد انتقل في الطور الميتافيزيقي لمحاولة فهم هذه السلوكات وهذه الحالات النفسية فهما تأمليا نظريا، وذلك قبل أن ينضم التفكير السيكولوجي إلى زمرة العلوم التي تطلب الدراسة التجريبية الوضعية للسلوك الإنساني، طالبا تفسيره وصياغة قوانينه الثابتة التي تتيح له التنبؤ بحدوثه مستقبلا بناء على توفر أسبابه. وفي هذه المرحلة لعب المنهج العلمي دورا أساسيا، إذ به انتقلنا من الدراسات الفلسفية للحالات النفسية إلى الدراسة العلمية للسلوك والحالات العقلية والشعورية واللاشعورية وغيرها، مما يؤلف موضوع علم النفس باختلاف مدارس هذا العلم واتجاهاته، ولقد كان المنهج الذاتي أو الاستبطان من أول المناهج المعتمدة في هذا العلم الوليد.

I– المنهج الذاتي L'introspection

1– تعريف المنهج وأصوله والعلمية والفلسفية

من الناحية التاريخية، يعتبر الاستبطان أقدم مناهج علم النفس، و"أقلها علمية" بالمعنى التقني، وأقربها إلى ضروب النظر الفلسفي التأملي. وهو يقوم على التأمل الباطني أو الملاحظة الداخلية، وقد انتصر له الفلاسفة قبل علماء النفس، لكونه الأكثر مراعاة لخصوصية الظاهرة الإنسانية عموما والظاهرة النفسية على نحو خاص. فالحالات الشعورية داخلية معاشة، لا خارجية مادية يمكن رصدها بالملاحظة الموضوعية، إنما يختبرها الفرد بنفسه، ويحس بها إحساسا مباشرا. فإذا أراد الواحد منا الوقوف على حقيقة عالمه الداخلي، فإنه يلجأ إلى "الاستبطان"، ليرى بنفسه ما يجول بداخله من أفكار وأحاسيس ورغبات ومخاوف وقدرات وقرارات وغيرها.

غير أن القول إن الفلاسفة قد انتصروا لهذا المنهج قبل علماء النفس لا يعني أنهم الوحيدون الذين استخدموه قبلهم، الحال أن من العلوم الطبيعية ما لعب فيه الاستبطان دورا حاسما في البناء النظري، وذلك حال الفيزياء والفيزيولوجيا مثلا. و«من الغريب أن علم النفس قد تعلم استخدام المنهج الذاتي في الملاحظة –لا عن الفلسفة– بل عن الفيزياء وعلم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا). استخدمته الفيزياء في دراسة الضوء والصوت، والفيزيولوجيا في دراسة أعضاء الحس. ويجب ألا يغيب عن البال أن الضوء والصوت ليسا وقائع موضوعية مطلقة؛ لأن الضوء ليس مجرد إشعاع، بل هو إشعاع مرئي، والصوت ليس مجرد ذبذبة اهتزاز. بل هو اهتزاز مسموع...فمن أجل أن يجرب الفيزيولوجي وظائف أعضاء الحس، ينبه عضوا معينا ثم يطلب إلى الفرد أن يسجل التأثير الذي حدث له، والإحساس الذي حصل عليه. وهذا الضرب من المنهج الذاتي للحصول على "هذه" الحقائق يمكن أن يسمى منهج التأثر **Method of impression**؛ وهو ذاتي لأن الشخص الذي يقع عليه أو فيه التأثير يلاحظه. وفي العادة كان الفيزيولوجي يجرب على نفسه أولا، فيجري تنبيها على أحد أعضاء حسه، ويدون التأثير الذي لقي. ولكي يتحقق من ملاحظاته، كان له أشخاص آخرون يقومون بنفس التجربة كموضوعات، فإذا سجل كل واحد عين التأثير عن نفس المنبه، قُبل الأمر على أنه حقيقة قائمة تدل على وظيفة هذا العضو من الحس.»[14] هذا رغم أن منهج الاستبطان بمعناه الواسع كما يستخدم في علم النفس أعم من منهج التأثر بهذا المعنى الضيق، وذلك لأنه ينظر إلى الظاهرة النفسية ككل وكمجموع حي. فـ«عندما تتلقى تنبيها، فإن خبرتك في مجموعها أغنى من مجرد التأثير المباشر الذي تلقيته عن المنبه. ومنهج التأثير يدعوك فحسب إلى أن تدلي بالأثر المباشر، بينما منهج الاستبطان الواسع يريدك أن تدلي بخبرتك كلها في هذه اللحظة، أو أقصى ما تستطيع منها.»[15]

صحيح أن الحالات الشعورية تحدث أحيانا حينما يثير انتباه الفرد مثير خارجي، فيثير فيه ذلك استجابات معينة، شعورية كانت أو عقلية أو حركية، وهو ما يقتضي الملاحظة الموضوعية والدقيقة للمثيرات المذكورة، ولكن فهم الاستجابة لا يكفيه ربطها بمثيرها ربطا آليا، وإنما يجب أن نأخذ بعين الاعتبار طبيعة الذات التي تستجيب، هذا بالإضافة إلى أن السلوك الإنساني (ذهنيا كان أو حركيا) لا يمكن اختزاله في الاستجابة لمثيرات العالم الخارجي. وهذا هو السبب الذي جعل المنهج الذاتي يغزو جل مدارس علم النفس، باستثناء القليل منها كالسلوكية مثلا، شأنه شأن المناهج الموضوعية، ذلك أن «الاستبطان كمنهج للملاحظة في علم النفس ليس ملكا لمدرسة بعينها، مثلما أن المنهج الخارجي ليس ملكا لأية مدرسة كذلك. ويظهر ذلك من هذه الحقيقة وهي أن كثيرا من علماء النفس قد استخدموا كلا المنهجين؛ وغالبا ما كان استخدامهم لكليهما في بحث بعينه.»[16]

---

[14]– روبرت ودورث: مدارس علم النفس المعاصرة، ترجمة كمال دسوقي، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص. 71.

[15]– روبرت ودورث: مدارس علم النفس المعاصرة، ص. 78.

[16]– روبرت ودورث: مدارس علم النفس المعاصرة، ص. 70.

2- قيمة الاستبطان وحدوده

إن التأمل الباطني ليس مجرد وصف لكيفية ارتباط الحالة الشعورية بمثيرها، وإنما هو النظر في تلك الحالة الشعورية في ذاتها، ومحاولة فهمها في تجربتها، ومن ثم تحليلها ووصفها. ولهذا المنهج إيجابيات كثيرة، منها:

◦ أنه يُثمِّن الذاتية، ويستثمر الحميمية التي تربط الذات العارفة بموضوع معرفتها من حيث أنه ينتمي إليها، كما أنه يثمن تجربة العيش، ويجعل فهم الحالة الشعورية أو السلوك مشروطا باختباره كظاهرة حية، وهاتان ميزتان يحتاجهما علم النفس للإحاطة بموضوع دراسته. فـ«نحن مجمعون –مهما تكن ميولنا إلى أية مدرسة– على أن مهمة علم النفس أن يدرس الفرد، وأن حقائقه تقوم على ملاحظات أفعال الفرد. فإذا كان الفرد كائنا حيا له القدرة على أن يقدم تقريرا؛ فلنا أن نطلب إليه أن يلاحظ ويقرر بعض أفعاله هو، أو ما يحدث له أو فيه. ولو أطلقنا على الفرد موضوع الدراسة "الذات **subject**"؛ فلنا أن نسمي الملاحظات التي يدلي بها على هذا النحو "ملاحظات ذاتية **subjective observations**"، مستخدمين اللفظة المقابلة "موضوعي **objective**"للملاحظات التي يجربها عليه شخص آخر. فالاستبطان ملاحظة ذاتية، وفي بعض الأحيان تسمى الملاحظات التي يدلي بها الشخص ذاته استبطانية.»[17]

◦ أنه يراعي خصوصية الظاهرة النفسية، المتسمة بالتغير والحركية والفيض الذي يند عن الضبط والتكميم الموضوعي، والمتسمة بالنسبية بحيث تختبرها كل ذات بشكل مخالف للذات الأخرى، وفي ذلك لا يختلف معنى الملاحظة العلمية أو تفقد هذه الأخيرة وظيفتها التي يسندها لها العلم. وبذلك «لا تختلف الملاحظة الذاتية جوهريا عن الملاحظة الموضوعية: ما زلنا نعتبر طريقة التأثر لونا من ألوان الملاحظة الذاتية ما دام الشخص يقرر التأثير الذي يتلقاه بنفسه. وتبقى بعد هذا مسألة ما إذا كانت الملاحظة الذاتية حقا شيئا آخر مختلفا عن الملاحظة العادية للحقائق الخارجية. فطريقة التأثر يمجدها علماء النفس الاستبطانيون الذين ينظرون إليها وكأنها الحال النموذجية للملاحظة السيكولوجية البسيطة، ويكرهها السلوكيون على أنها ملطخة بالصبغة الذاتية. أما للشخص نفسه الذي يجري الملاحظة، فهي تبدو موضوعية كملاحظة حقيقة موضوعية أو خارجية. أنت تُلقي أمام عينيه ضوءا، فيقرر "إنه أخضر"، فهي تبدو له نفس النوع من الملاحظة الذي يجريه دائما على الأشياء؛ إلا أنه ربما كان أكثر معاناة للتجربة. وربما استطاع أن يُقنع نفسه أن تلك الصورة شيء "في عينيه" أكثر منه على الحائط حقيقة؛ ولكن الملاحظة تبدو موضوعية كأية ملاحظة أخرى.»[18]

◦ أنه يساعد في تجاوز مفهوم الموضعة في الدراسة العلمية، ويراعي مسألة تمركز الذات حول الموضوع، وفي ذلك يجمع بين ميزة القرب من الموضوع وميزة دقة الملاحظة. أما أولئك الذين ينادون بالتخلي عن الاستبطان كمنهج علمي في علم النفس، فإن حججهم تصلح ضد كل ملاحظة علمية. لماذا؟ «إذا كان منهج التأثر الذاتي، أو الملاحظة

---

[17]– روبرت ودورث: مدارس علم النفس المعاصرة، ص. 70–71.

[18]– روبرت ودورث: مدارس علم النفس المعاصرة، ص. 74–75.

الداخلية، أو الاستبطان، غير صحيح من أساسه؛ فإنه يبدو أن كل ملاحظة علمية غير صحيحة؛ لأنه يتطلب من الملاحظ من الناحية العملية ما تتطلبه تلك تماما...فالملاحِظ الإنساني ما أشبهه بآلة تسجيل حساسة، كالترمومتر مثلا. فأنت حينما تختبر ترمومترا جديدا، تجربه في درجات حرارة معلومة لترى هل يسجل في غير خطأ درجات الحرارة هذه. فإذا استوثقت من دقته جربته في درجات حرارة مجهولة وأخذت تقبل ما يسجله على أنه صحيح في حقيقته الخارجية. وفي التجربة السيكولوجية يعمد الباحث إلى معرفة المؤثر الذي طبقه على موضوعه؛ وبذلك يمكنه أن يستفيد من إجابة الشخص له من حيث أنها تبين شيئا عن هذا المفحوص نفسه والعمليات التي تجري فيه. أما في التجربة الكيميائية أو الفيزيقية؛ فإن الباحث يعرف ملاحِظه ويثق به، ويأخذ إجابته دليلا على حقيقة موضوعية مجهولة. وعلى هذا فمنهج التأثير والملاحظة العلمية الصحيحة لا يختلفان من حيث هما ملاحظة، ولكن فيما يسبقهما وما يتلوهما. هما عند الملاحِظ شيء واحد، وإنما يختلفان عند الباحث لأنه يبدأ "في كليهما" من موضع مختلف، ويقصد وجهة مختلفة. وضوابط طريقة التأثر هي بعينها ضوابط الملاحظة العلمية بصفة عامة. وهي إجماع ملاحظين مختلفين، واتفاق الحقائق التي يدلون بها. هذا رغم أن الأفراد يختلفون كثيرا حتى لا نستطيع أن نتوقع إجماع الملاحظين عموما في تجربة سيكولوجية.»[19]

غير أنه لهذا المنهج عيوبا منها:

◦ أن الموضوعات التي يمكن دراستها بالاستبطان محدودة، وبالتالي تكون نتائج هذا المنهج مقتصرة على بعض الظواهر فقط.

◦ أن الاستبطان يفتح المجال لسيادة الرأي لا العلم، ويمهد الطريق لسيادة الأحكام المسبقة والشخصية، فيكون هذا المنهج طريقا إلى الظن لا العلم.

◦ أن هذا المنهج يعتمد على الملاحظة الداخلية، وفي ذلك يستعين بملاحظين يلعبون دور أدوات الملاحظة، ولكن هؤلاء كثيرا ما يكونون مفتقدين للدُّربة التي تمكنهم من النقل الدقيق والأمين لما يجدونه في دواخلهم.

◦ أن هذا المنهج يعتمد على اللغة كوسيلة أساسية في نقل خصائص العالم الداخلي، والحال أن هذه تطرح مشكلات كثيرة، منها أن هؤلاء الملاحظين يستخدمون لغة عامة، لا لغة علمية تقنية دقيقة، لذلك فعباراتهم كثيرا ما تنقصها الدقة والوضوح، بل وكثيرا ما تكون في حاجة إلى شرح وتوضيح، لأنها تقبل تأويلات كثيرة.

◦ أن الاستبطان يعتمد على ما ينقله الملاحظون مما يعيشونه (هم العينة)، وقليلا ما يجد الباحث التعاون الكافي من أفراد هذه العينة، فإما أنهم يخفون أشياء معينة أو أنهم يغيرون بعض الحقائق أو أنهم يصيبهم بعض الارتباك، إما نتيجة خوف أو قلق أو اضطراب نتيجة وعيهم بكونهم موضوعات للدراسة للعلمية.

---

[19]– روبرت ودورث: مدارس علم النفس المعاصرة، ص. 76.

II- المنهج التجريبي

1- المنهج التجريبي في تاريخ علم النفس

في مقابل دعاة "المنهج الذاتي" أو "الملاحظة الداخلية" أو "الاستبطان"، اتجه الكثير من علماء النفس إلى التجريب والاستقراء، محتجين بالنتائج التي حققها هذا المنهج في العلوم الطبيعية، فصار المنهج التجريبي من أكثر المناهج اعتمادا في علم النفس، خاصة علم النفس التجريبي. وفي ذلك يرجع الفضل الكبير إلى مجموعة من العلماء، من أهمهم الألماني فلهلم فوندت **Wilhelm Wundt**، صاحب أول مختبر لدراسة الظواهر النفسية والسلوكية سنة **1879**، وقد «أثار لدى تلاميذه النزعة التجريبية. وهذا ما تجسد بوضوح في إقامتهم المخابر النفسية في أوطانهم بعد عودتهم...وتعكس هذه الظاهرة نظرة المشتغلين في ميدان علم النفس إلى الظاهرة النفسية نظرة موضوعية باعتبارها تحدث في الزمان والمكان. ولقد جاءت هذه النظرة لتحل محل النظرة القديمة، التي ترى أنه من غير الممكن إخضاع الظاهرة النفسية للدراسة، بوصفها شيئا يختلف عن بقية الظواهر اختلافا جوهريا. وربما رسخت النظرة الجديدة إلى علم النفس الاعتقاد بإمكانية قيام علم موضوعي يقف على قدم المساواة مع علوم الطبيعة، وشجعت أصحابها على اتباع الطرائق واستخدام الأدوات التي تستخدم في تلك العلوم. ومن الثابت تاريخيا أن هذه النظرة حملت أصحابها إلى استخدام التجربة في نشاطهم العلمي، نظرا لما توفره للباحث من إمكانية ملاحظة الظاهرة السلوكية أكثر من مرة ضمن شروط معينة، ثابتة أو متغيرة، وفهم الأسباب والعوامل التي تقود إليها، ومعرفة النتائج التي تترتب عن حدوثها. وأصبحت المخابر النفسية مركز نشاط المهتمين بالعلم الجديد.»[20]

لقد كان إذن إدخال التجريب إلى علم النفس إعلانا لانفصال علم النفس عن الفلسفة، ومنذ ذلك الحين زاد الاعتماد على المنهج التجريبي في الأبحاث النفسية والسلوكية. ومع أن روح هذا المنهج في علم النفس هي نفسها التي تحضر في بقية العلوم، إلا أنه يتلون قليلا بخصوصية موضوع هذا العلم. فبماذا يتميز المنهج التجريبي في علم النفس؟ ما هي خطواته؟ وما قيمته في البحث العلمي النفسي؟ وما هي حدوده؟

من حيث بنيته العامة، يتألف المنهج التجريبي من عدد من الخطوات التجريبية المنظمة التي ينتهجها الباحث للتحقق من صحة فرضية وضعها. وربما يعرفه الباحثون في علم النفس بأنه تغيير متعمد ومضبوط للشروط المحددة لحدث ما، مع ملاحظة التغيرات الواقعة في ذات الحدث وتفسيرها. أو هو طريقة في البحث العلمي تتضمن تغييرا مضبوطا ومتعمدا للشروط المحدِّدة للواقعة المدروسة، مع ملاحظة التغيرات الناتجة عن ذلك، وتفسير تلك التغيرات. ويمكننا تلخيص خطوات المنهج التجريبي في تسع، وهي:

---

[20]- بدر الدين عامود: علم النفس في القرن العشرين، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، **2001**، ص. **112**.

- **ملاحظة الظاهرة ملاحظة دقيقة، سوية كانت أو مرضية.**

- **تحديد المشكلة العلمية (لماذا تحدث هذه الظاهرة؟ كيف تحدث؟...)**

- **صياغة الفرضية (كجواب مسبق ومحتمل للمشكلة العلمية)**

- **اختيار العينة (مجموعة من الأفراد المحددة صفاتهم بعناية)، يشترط فيها أنها تجمع خصائص المجتمع الذي استمدت منه والذي نود دراسته. وهذه العينة يجب أن تستوفي شروطا خاصة حتى تحقق الغرض من إجراء التجربة وتقود إلى نتائج دقيق، من هذه الشروط أنه يتم اختيارها عشوائيا حتى تمثل كل الجماعة المدروسة.**

- **إجراء التجربة، في شروط مضبوطة، لذلك يجب ضبط المتغيرات والتحكم فيها[21] (مثل العمر والجنس والمستوى الاقتصادي والمستوى التعليمي والدين والحالة العائلية...) حتى تكون العينة متجانسة، وحتى يتسنى للباحث إعادة إجراء التجربة، إن أراد التأكد من صحة النتائج.**

- **جمع النتائج وتحليلها، من خلال الإحصاءات أو تفريغ الاستمارات، والمقارنة بين أداءات أفراد العينة، وتحويلها إلى أرقام (التكميم)، واستنتاج صحة الفرضية أو خطئها.**

- **صياغة القانون في حالة تأكيد صحة الفرضية.**

- **تعميم النتائج، عملا بمنطق الاستقراء، شريطة تكرار التجربة.**

- **الحصول على إمكانية التنبؤ مستقبلا.**

وقد استفاد علم النفس التجريبي من التقدم التقني الذي عرفته وسائل الملاحظة والقياس والتجريب، مثال ذلك ما تقوم به اليوم علوم الأعصاب والعلوم المعرفية.

وتتنوع التجارب العلمية في علم النفس تبعا للمكان الذي يجرى فيه التجريب العلمي: أ- فهناك تجارب مخبرية، وتتم في ظروف مخطط لها مسبقا داخل المختبر، في مكان مزود بأدوات الضبط والقياس، يتم فيها التحكم في المتغيرات، بحيث يتم وضع أفراد العينة موضع البحث في مناخ تجريبي أو اصطناعي يتناسب مع أغراض البحث، وهذا

---

[21]- تتضمن التجربة نوعين أساسيين من المتغيرات، هما المتغير المستقل والمتغير التابع. المتغير المستقل يمثل المتغير المؤثر، والذي تجري عليه المعالجة لقياس مدى تأثير اختلاف مستوياته على اختلاف مستويات المتغير التابع، الذي يمثل النتيجة التي يتوقع الباحث الوصول غليها ويرتبط تغيرها بالمتغير المستقل. وقد يكون المتغير المستقل ظاهرة من الظواهر كالضوضاء أو التعب والتأثير على مستوى الأداء العقلي. كما قد يمثل المتغير المستقل أحد الأساليب العلاجية، كقياس تأثير العلاج العقلاني على الحد من العنف لدى طلاب المدارس. ولا بد أن تحتوي التجربة على متغير مستقل محدد ذو مستويات متعددة يسهل معالجتها، بالإضافة إلى متغير تابع يمكن قياسه وتقدير درجاته بطريقة موضوعية ومن خلال استخدام أدوات ومقاييس تتميز بالثبات والصدق وسهولة التطبيق.

يساعد الباحث على التحكم في كافة متغيرات الدراسة. ب- ثم هناك تجارب غير مخبرية، تتم في الوسط الطبيعي للظاهرة المدروسة، وهي التجارب الميدانية، ويتم فيها إجراء التجارب واختبار الفروض في مناخ عادي، كالمدرسة والمصنع والبيت. وتتميز هذه الطريقة بأن الأفراد موضوع البحث لا يتصنعون الحركة أو النشاط، حيث لا يوجد لديهم شك في أنهم مراقبين أو موضوع دراسة، مما قد ينعكس على سلوكهم.[22]

2- قيمة المنهج التجريبي في علم النفس وحدوده

تتجلى قيمة المنهج التجريبي في كونه يقودنا إلى نتائج دقيقة وموضوعية، كما أنه يمكننا من تفسير الظاهرة المدروسة وصياغة قوانين ثابتة تحكمها، ومن ثمة يمكننا من التنبؤ بحدوثها مستقبلا، واستباق ذلك إما بتجنب أسبابها لمنع حدوثها، أو بالاستعداد لها إذا رأينا أن حدوثها حتمي. فـ«من خلال دراسة الإحساس والإدراك وقف العلماء قبل أن يصبح علم النفس قائما بذاته على تخوم الظاهرة النفسية، وحاولا استجلاء طبيعتها وقوانين تكونها وتطورها بوسائل موضوعية، وأحيانا بلغة علومهم. وبذا مهدوا السبيل أمام علماء النفس لدراستها بنفس الوسائل، ولكن بلغة علمهم الناشئ. ثم إن إفادتهم من التقنيات المستعملة في العلوم القريبة من علم النفس كالفيزيولوجيا والتشريح...وتوظيفها في دراسة موضوعات تلك المحاور رسخا لديهم الإيمان بجدوى عملهم وموضوعية النتائج التي كانوا يتوصلون إليها.»[23]

يعد استخدام المنهج التجريبي من العوامل الأساسية التي ساعدت على تطور علم النفس ليصبح علما، من خلال التجريب على الحيوان ثم الإنسان، بالإضافة إلى استخدام المعالجات الإحصائية في التعامل مع البيانات المستخرجة من التجارب وما يتبعها من زيادة الثقة في النتائج.

ومنذ فوندت، أصبح علم النفس التجريبي أحد فروع علم النفس الأساسية التي تستهدف ابتكار طرق جديدة للبحث العلمي وتطوير أساليب وإجراءات لتصميم التجارب العلمية، بما يفيد تقدم وتطور الدراسات في علم النفس، ويعد القاسم المشترك بين مختلف فروع علم النفس، فيستعين به المتخصصون لإجراء مختلف الدراسات والبحوث العلمية، لتحقيق أكبر قدر من الدقة والموضوعية عند دراسة الظواهر النفسية. كما ساهم في تطوير مناهج البحث في شتى فروع علم النفس، وتحول العلم من مجرد علم يهتم بدراسة الشعور الإنساني إلى علم يهتم بدراسة السلوك الإنساني والحيواني باستخدام المنهج العلمي القائم على الملاحظة والتجربة والقياس والاستدلال الاستقرائي.

ولكن إلى جانب قيمته العلمية هذه، فإن للمنهج التجريبي في علم النفس حدودا، منها:

---

[22]- محمد سرحان علي المحمودي: مناهج البحث العلمي، دار الكتب، صنعاء، 2015، ص. 81.

[23]- بدر الدين عامود: علم النفس في القرن العشرين، ص. 113.

- أنه يعتمد على العينة في إجراء التجربة، ومن ثم تعميم النتائج على مجتمع الدراسة، غير أن تلك العينة قد لا تمثل مجتمع البحث، وبالتالي يصعب معها تعميم النتائج.

- أنه لا يصلح أحيانا لدراسة الظواهر التي يصعب التحكم فيها، مثال ذلك، أنه يصعب التجريب على الإنسان إذا كان ذلك قد يلحق به الأذى.

- هناك عوامل تحدث أثناء إجراء التجارب تؤثر في مدى دقة النتائج المتوصل إليها، مثل صعوبة الحصول على التعاون التام من أفراد العينة.

- صعوبة حصر جميع المتغيرات المؤثرة في الظاهرة المدروسة من جهة، ثم إن المنهج التجريبي يعتمد على استخدام أسلوب الضبط والعزل لكافة العوامل المؤثرة على الظاهرة، ولكن هذا يبدو صعب التحقق في على النفس، لتأثر الظاهرة فيه بعوامل عديدة متفاعلة يصعب تثبيتها.

- صعوبة تحقيق الموضوعية، نظرا لأن أفراد العينة يغيرون من سلوكاتهم عندما يعلمون أنهم موضوع دراسة.

- ليست كل الظواهر يمكن التجريب عليها وإعادة إحداثها، فهنالك ما يحدث مرة واحدة فقط.

- ليست إعادة الظاهرة هي نفسها الظاهرة، وهذا يثير مسألة "هل الظاهرة النفسية يمكن أن تكون موضوع بحث؟".

- كيف يمكننا ملاحظة المشاعر ومختلف الانفعالات الداخلية، التي تعاش فقط؟

3- تاريخ علم النفس التجريبي

ارتبط تاريخ علم النفس التجريبي بشكل مباشر مع تاريخ علم النفس كعلم مستقل عن الفلسفة. ولئن كان فوندت يُشهد له بالنصيب الأوفر من المساهمة في نشأة هذا العلم، فإنه كان لمفكرين وعلماء سابقين عليه مساهمات مهمة في ذلك، خاصة علماء عصر النهضة. ومن هؤلاء العلماء جوستاف فخنر **G. Fechner** (**1801–1887**)، الفيلسوف الألماني وعالم النفس التجريبي والاستاذ في جامعة ليبزغ، ألف كتابا في "مبادي السيكوفيزياء"، وهرمان هلمهولتز **H. Helmoholtz** (**1821–1894**)، هذا الذي كان له إسهام واضح في الربط بين علم وظائف الأعضاء وعلم النفس وكان له تأثير كبير على فوندت. وقد كانت أهم إسهاماته في مجال دراسة زمن الرجع (وهو الوقت المستغرق بين المثير وبداية ظهور الاستجابة) عند الإنسان، وقد توصل إلى وجود فروق فردية بين الأفراد في زمن الرجع، إضافة إلى الفروق داخل الشخص نفسه، والتي تتأثر بما يتعرض له الشخص من مواقف متنوعة. كما اهتم بدراسة وظائف الأعصاب الحسية. أما هيرمان إبنجهاوس **H. Ebbinghous** (**1850–1909**)، فقد اهتم بالعمليات العقلية العليا، مثل

الذاكرة وأثرها في التعلم. وقام بدراسة أثر الزمن الممتد بين التعلم والاستعادة على تذكر ما سبق أن تعلمه الفرد. وتركز اهتمامه على تحديد مقدار ما يمكن تذكره بغض النظر عن الخبرة الذاتية للتذكر.

أما فلهلم فوندت (1832–1920)، فهو أول من فكر في وجود فرع من علم النفس يستخدم التجريب في أبحاثه، ويعتمد على الضبط والتحكم لتكميم الظواهر الإنسانية، ويطلق عليه علم النفس التجريبي، كما أنه صاحب أول معمل سيكولوجي لدراسة الظواهر النفسية، افتتحه في ليبزغ عام 1879، وقبلها بخمس سنوات نشر كتابه في "مبادئ علم النفس الفيزيولوجي". وقد تركزت البحوث التجريبية في هذا المختبر على ثلاثة محاور، هي دراسة الحس، والإدراك البصري واللمسي والسمعي، والسيكوفيزياء، ودراسة زمن الرجع.[24] وقد ركز فوندت دراسته الفيزيولوجية النفسية على الفسيفساء النفسية من إحساسات وإدراكات وشعور وانفعال، فوجد في هذه العناصر ما يجب على علم النفس تناولها بالتعرف على طبيعتها والعلاقات بينها في تفاعلها، فصار يدرس الحواس وردود الأفعال والمساحة الزمنية الفاصلة بين المثيرات والاستجابات. فعلم النفس في نظر فوندت يجب أن يدرس الخبرة الداخلية المباشرة للفرد. أما طريقة تناول هذا الموضوع، فإن خصوصية هذا الأخير تفرض على الباحث التخلي عن التقنيات المستخدمة في دراسة البنية العضوية للكائن الحي وعلاقته مع المحيط، والبحث عن منهج جديد يتناسب مع طبيعته ويراعي خصوصيته. لذلك اقترح فوندت كلا من المنهج التجريبي ودراسة التاريخ الطبيعي كمنهجين علميين يصلحان لدراسة الإنسان من الناحية البيولوجية. غير أنه ومع إشادته بالتجربة في الدراسة العلمية للإنسان، إلا أنه ذهب إلى أن التجربة لا تحمل نفس الأهمية العلمية عند دراسة الجوانب الشعورية المعقدة، ولا هي بنفس الفاعلية في المعرفة النفسية، لذلك اقترح الاستبطان منهجا، ونصح بضرورة أن يصبح المنهج الذي يبدأ به علم النفس.

ولكن بعد أن أجرى فوندت سلسلة من التجارب النفسية المخبرية، مستخدما طريقة الاستبطان، اعترضته صعوبات كثيرة، وذلك بسبب تفاوت قدرات المفحوصين على التعبير عن ما يعيشونه داخليا، لذلك اضطر إلى إدخال تقنية جديدة مضافة إلى الاستبطان، وهي التدريب؛ أي تدريب مفحوصيه على ما يجب عليهم فعله حين مراقبتهم انشطتهم النفسية الداخلية، وكيفية نقل إحساساتهم إلى الباحث عن طريق اللغة. غير أن فوندت وتلامذته معه انتهوا إلى أن تلك التجارب لم تكن موضوعية بالقدر الذي يجعل الباحث يطمئن إليها. وقد حاول فوندت تطوير الاستبطان التقليدي في الاتجاه الذي يجعله يتناسب مع تقنيات المخابر الحديثة، وهو ما يشهد على النزعة التوفيقية للدراسات النفسية عند فوندت، بين النزعات الاستبطانية والنزعات التجريبية.[25]

---

[24]– بدر الدين عامود: علم النفس في القرن العشرين، ص. 97.

[25]–بدر الدين عامود: علم النفس في القرن العشرين، ص. 98–99.

III- منهج المقابلة الشخصية

1- تعريف المنهج ومجالات استخدامه

تستخدم طريقة المقابلة خاصة في علم النفس العلاجي وفي الطب العقلي وعلم النفس الاجتماعي وعلم النفس المهني. وهي طريقة فعالة لجمع المعلومات حول الظاهرة المدروسة، سوية كانت أو مرضية. بل هي الطريقة الأكثر انتشارا بين الباحثين في قياس الشخصية. وهي تقوم على ترتيب مقابلات بين الباحث أو المعالج النفسي والشخص المعني بالحالة المدروسة، بحيث يحضِّر الأول للأخير مجموعة من الأسئلة المضبوطة والموجهة بما يريد الباحث معرفته، ومن خلال مضامين أجوبة الشخص المفحوص وشكلها يلاحظ الباحث طبيعة استجاباته وكيفيتها، ونوعية الانفعالات التي ترافقها، هل هو هادئ أم انفعالي مثلا، وتعبيراته الجسدية ونوعية اللغة والألفاظ التي يستخدمها وطبيعة الاستدلال ونوعية الحجج، هل يلجأ إلى التبرير أم يكتفي بالوصف مثلا، ومدى تعاونه في الأجوبة أو رفضها، هل يجيب عفويا أم بتحفظ أم يتجنب بعض الأسئلة أم يحب الكلام في موضوعات ولا يحب أخرى، فينظر الباحث إلى كل ذلك كعناصر متكاملة تكون بنية واحدة هي شخصية الفرد أحد طرفي المقابلة.

ومن حيث هي طريقة علمية، تستخدم المقابلة في علم النفس إما كطريقة بحث وبناء نظري، أو كطريقة للعلاج، ومن ثمة فهي تصلح لتشخيص الحالات المرضية بغرض تفسيرها واقتراح العلاج لها، مثلما يستخدمها الطب النفسي أو التحليل النفسي. كما تستخدم لتشخيص مكان السواء والقوة الشخصية للأفراد للتعرف على قدراتهم واستعداداتهم وميولهم، بغرض استخدامهم في مهن معينة. ثم تستخدم في المساعدة النفسية الاجتماعية للشخص لتنمية استعداده الاجتماعي وتثبيت أناه خلال تفاعله مع الجماعة، مثلما يفعل ذلك علم النفس الاجتماعي.

ولأن المفحوص ذات إنسانية، وبذلك يتصل به الباحث وجدانيا، بطريقة أو بأخرى، وهو ما قد يحول بينه وموضوعية الملاحظة والحكم العلميين، هذا بالإضافة إلى المظهر الخارجي للشخص والأحكام المسبقة التي قد تكون لدى الباحث حول ذلك المظهر أو حول الجنس أو اللون أو العرق أو الطبقة الاجتماعية أو المستوى التعليمي أو الانتماء الديني أو السياسي أو غيرها، من أجل كل ذلك يتوسل الباحثون بوسائل للاستبيان تجعله أكثر تجردا من شوائب الذاتية وأكثر نزوعا إلى الموضوعية. ومن هذه الوسائل اللجوء إلى تكرار المقابلة، بحيث يقوم بها باحثان أو أكثر، فيسلكان فيها نفس المسلك ويطرحان نفس الأسئلة ويسجلان البيانات، ثم يقارنان بين ما سجلاه، ولا يصادقان إلا على ما تم تسجيله في كلتا المقابلتين، أو على الأقل يكون هناك نوع من التقارب بين البيانات.[26]

---

[26]- عبد الرحمان العيسوي: أصول البحث السيكولوجي، ص. 78.

ومثل غيرها من مناهج البحث العلمي، فقد عرفت طريقة المقابلة تطورا منذ أن دأب علماء النفس على استخدامها. ولئن كانت في البداية تتم على نحو أقل تنظيما، فلم تكن تتجاوز محاولة أخذ بعض الانطباعات حول الشخص طرف المقابلة، وهو ما كان يطبعها ببعض العيوب، أهمها الذاتية والعشوائية، فإنها قد أصبحت تدريجيا أكثر ضبطا وأكثر تقنينا وعلمية، سواء من حيث نظامها وطرق ممارستها أو من حيث مضامينها. فمن حيث الشكل، صارت المقابلة تتم في ظروف مضبوطة ومتحكم فيها، أعني أنه يتم التحضير لها مسبقا، بتحضير وسائل جمع البيانات وتفسيرها، وكتابة الأسئلة وتوحيدها، وإعداد منهج المقابلة وكيفية تسييرها. أما من حيث المضمون، فإن هذه الأسئلة موضوع المقابلة تُحَضَّرُ على نحو موجَّه، بحيث تغطي كل ما يريد الباحث الاستبيان حوله. ففي علم نفس العمل مثلا، إن المختص النفسي الذي تتوسل به المؤسسة المشغِّلة لقياس شخصية الفرد الذي تريد توظيفه يحَضِّر أسئلة موحدة تغطي كل مناطق الشخصية، ثم يلاحظ كيف يتفاعل كل مترشح مع تلك الأسئلة، فضلا عن مضمون أجوبته.

ونظرا لفعاليتها، فإن طريقة المقابلة الشخصية تعتمد في أغلب مجالات علم النفس، كما تستخدمها جل مدارس هذا العلم، بغض النظر عن الخلفية الفكرية لكل مدرسة، بل وهي توظفها إلى جانب مناهج أخرى أو تجعل منها خطوة من خطوات دراستها. فقد تكون المقابلة الشخصية وسيلة للاستبطان، أعني وسيلة للملاحظة الذاتية، حيث يطلب الباحث من المفحوص أن يجيبه عن مجموعة من الأسئلة تكون كلها غرضها أن يصف المفحوص ما يراه في عالمه الداخلي وما يعيشه من تجارب شعورية. وقد تكون المقابلة خطوة من خطوات المنهج التجريبي في علم النفس، بحيث قد يتوسل العالم المجرب بمجموعة من الأسئلة يوجهها لأفراد عينة الدراسة يكون غرضه منها التأكد من صحة فرضية تفسيرية لديه أو خطئها، سواء تمت المقابلة على نحو منظم ومقنن أو بشكل غير ذلك. كما تستخدم المقابلة في التحليل النفسي، ومعلوم أنه من أهم وسائل العلاج بالتحليل النفسي اللجوء إلى مقابلات بين المعالج النفسي والمريض، فيها يحاول الأول الوقوف عند مكامن الخلل في البنية النفسية للأخير التي تنعكس على سلوكاته في صيغة مرضية (انحرافات)، والتي تكون دائما غالبا لا شعورية.

2- عقبات في طريق منهج المقابلة

غير أن طريقة المقابلة الشخصية تعترضها عقبات، وتكون فعالة إن تمكن الباحث أو المعالج من التغلب على هذه العقبات. أهمها أن الشخص المستجوَب كثيرا ما ينزع إلى الإخفاء والتردد ولا يميل إلى التعبير الصادق عن مشاعره الحقيقية، ذلك لأنه اعتاد في الحياة الاجتماعية أنه إذا عبر عنها بصدق فإن ذلك يكون موضوع أحكام الآخرين ونقدهم وربما يَصِمُونَ أقواله وأفعاله، فيأتيه اللوم أحيانا أو الازدراء والسخرية أحيانا أخرى، لذلك يسلك طريق الإخفاء تجنبا لشر الإفصاح. ولقد اقترح كارل روجرز «طريقة بموجبها يستطيع الباحث أن ينفذ إلى نفس المفحوص، وبموجبها يمكن إزالة الحواجز والموانع التي تعوق انطلاق أفكار المفحوص وانفعالاته، وذلك عن طريق خلق جو من القبول والتسامح بين الفاحص والمفحوص...إن الباحث الكفء يتعلم كيف يصغي جيدا وكيف يقنع المفحوص أنه مهتم، وأن حديثه شيق

بالنسبة له، إنه يعيد بعض الفقرات التي يقولها المفحوص، ومن ثم فإنه يقنعه أنه يفهمه وأنه مهتم وأن حديثه شيق. كذلك فإن استماع المفحوص لأفكاره ومشاعره من الباحث يعطي فرصة للمفحوص لكي يصبح أكثر وعيا وإدراكا بأفكاره ومشاعره، ويعد قبول الباحث للمفحوص من الأهمية بمكان، ذلك لأنه سوف يشجعه عن أن يبوح بمزيد من الأفكار والمشاعر.»[27]

فإذا نجح الباحث في نيل ثقة وقبول الشخص الذي يشكل طرف مقابلته، كان ذلك مقدمة لظهور عفوية هذا الشخص وتلقائيته، فيتبدى أمامه "ظاهرة نفسية حية مثلما هي في واقعها الطبيعي"، وما على الباحث حينها إلا أن ينصت بتمعن ويسجل بدقة، ستتجلى أمامه الأفكار والمشاعر والمشكلات والمخاوف والذكريات والرغبات والمقاصد والدوافع وغيرها مما يشكل البنية النفسية لهذا الشخص، أو يكون شخصيته بشكل عام.

- **ثم تبقى عقبة أخرى على الباحث أن ينجح في تجاوزها، ألا وهي تنظيم تلك البيانات وترتيبها وتحديد العلاقات بينها، بتحديد ما يمثل المركز فيها في مقابل ما يدور حول هذا المركز، أعني تحديد ما يمثل نواة المشكلة النفسية أو السلوكية إذا تعلق الأمر بظاهرة مرضية، وما يشكل نواة قوة الشخصية وتماسكها وسواءها إذا تعلق الأمر بظاهرة سوية؛ على الباحث أن يحسن استثمار المعلومات التي جاد بها المفحوص ويطور وسائل قياسها والربط بينها وتفسيرها بما يمكنه في النهاية من صياغة حكم علمي دقيق حول الشخص موضوع دراسته أو تقييمه، فيتسنى له وصف العلاج المناسب إن كان الأمر يتعلق بظاهرة مرضية، أو الإقدام على القرار المناسب إن كان الأمر يتعلق بظاهرة سوية (منح الشخص الوظيفة مثلا أو إقصاؤه، إذا كان الأمر يتعلق بمقابلة للولوج إلى وظيفة معينة). عليه مثلا أن يصنف المعلومات والبيانات إلى ما هو رئيسي وما هو ثانوي، ثم الربط بين تلك البيانات الرئيسية لمحاولة إعادة بناء موقف يكون بمثابة مفتاح لفهم شخصية هذا المفحوص طرف المقابلة. وفي ذلك لا يكتفي الباحث بالمعلومات التي ينطق بها من يشكل مقابلته، وإنما يستثمر أيضا التجربة البينذاتية المشتركة بينهما، فهو يجلس أمامه ويتصرف أمام ناظريه، وسلوكاته وتعبيراته الجسدية وردود أفعاله تكون مادة هامة جدا في بناء ذلك الموقف الذي يبحث عنه والذي يمثل مفتاح شخصية هذا المفحوص. فهو مثلا يلاحظ كيف ينطق الكلمات، وهذا مهم إذا كان الأمر يتعلق بمقابلة للولوج إلى وظيفة فيها التواصل مهم، ويلاحظ ردود الأفعال في مواقف الحرج والضغط، وهذا مهم لوظيفة فيها الاحتكاك بكل أصناف الناس مهم، ويركز على مدى حضور الجانب الوجداني والعاطفي أو الجانب العقلاني والعملي، وهذا مهم بالنسبة لشخص يعاني من مشكلات الاندماج الاجتماعي والأسري، إلخ.**

- **ثم هناك عقبات أخرى، مردها إلى أن المفحوص لا يصرح بكل شيء، لا لأنه يخفي، وإنما لأنه لا يعرف، وفي ذلك تظهر وظيفة الباحث أو الفاحص، إذ يبقى عليه أن يربط ويستقرئ ويستنبط انطلاقا من ما يقدمه مفحوصه من**

---

[27]– عبد الرحمان العيسوي: أصول البحث السيكولوجي، ص. 82.

كلمات أو يصدر عنه سلوكيا، وغالبا ما يكون في هذا الربط والاستنتاج الحلقة الأهم لحل المشكلات النفسية والسلوكية للفرد.

2- أنواع المقابلة وقيمتها العلمية

● هناك نوعان من المقابلة المعتمدة في علم النفس: مقابلة مقيدة، يتقيد فيها الباحث بعدد من الأسئلة المعدة سلفا والمكتوبة، يوجهها إلى مفحوصه للإجابة عنها دون غيرها، ثم هناك المقابلة الحرة، التي لا يتقيد فيها الباحث بأية أسئلة محددة، وإنما يترك لسير النقاش بينه وبين مفحوصه أن يحدد طبيعة الأسئلة المطروحة، ولكن يكون فيها حد أدنى من التوجيه من جانب الباحث ولكن في الوقت ذاته يترك للطرف الثاني حرية الحديث في ما يريد، وربما سمح له حتى بالسؤال، فيجيب الباحث.

ولئن كان النوع الأول من المقابلة يتميز بالدقة والضبط والتنظيم المسبق للمعلومات والتوجه مباشرة إلى ما يريد الباحث معرفته والتركيز على المشكلة التي يريد تفسيرها، ثم إنها تسمح بإخضاع مجموعة من الأشخاص لنفس المقابلة وبنفس المعايير والإجراءات، فإن أهم مساوئها الجمود وتقييد المفحوص والإبقاء نسبيا على المسافة بين طرفي المقابلة (الدارس وموضوع الدراسة). أما المقابلة الأقل تقييدا، فإنها تكون أغنى من حيث البيانات، لأن المفحوص تكون له حرية كبيرة في التعبير، وتتقلص فيها المسافة بين الباحث والشخص الذي يقابله، فيسير فيها النقاش سيرا طبيعيا كما لو أن هذا الشخص في حياته الطبيعية، فتظهر التلقائية والعفوية وهما يشكلان الأرض الخصبة "لإعادة بناء موقف هذا الشخص" بناء علميا. ولكنها بالمقابل تحتاج إلى مجهود أكبر في تسجيل البيانات والربط بينها واستثمارها، كما أنه يكون من الصعب تكرارها، لأن الأشخاص تختلف طباعهم، ومن ثم يبقى الحكم الذي ينتهي إليه الباحث صالحا للحالة التي درسها فقط.

3- بعض حدود منهج المقابلة

وبغض النظر عن الاختلافات بين نمطي المقابلة إلا أنهما معا تمثلان طريقة في البحث والفحص تجمع بين ميزة الاستبطان، وهي الملاحظة الداخلية للظاهرة، وميزة المنهج التجريبي، وهي الملاحظة الخارجية الموضوعية لهذه الظاهرة. ولكنها من جهة أخرى طريقة علمية تعاني من مجموعة عيوب تشكل حدودها، ومنها:

○ في حالة المقابلة غير المقيدة، إن القرب من الشخص الذي يمثل موضوع الدراسة قد يزيد من الاتصال الوجداني والقيمي به، فيكون ذلك عائقا أمام الدقة والموضوعية، فالباحث في نهاية المطاف إنسان، حتى لو توسل بالأسئلة المحددة قبلا وبوسائل الاستبيان الموضوعية. فقد يتعاطف معه أو ينفر من طبعه أو تكون له مواقف أخرى.

◦ أما في حالة المقابلة المقيدة، فقد تكون الأسئلة التي أعدها الباحث غير كافية، وقد يكون إعدادها المسبق خطأ، لأنه أعدها قبل ملاحظة الشخص المفحوص. وقد تكون طريقة صياغة هذه الأسئلة عاملا في إحجام المفحوص عن الجواب؛ فربما توحي له بخلفية فكرية لا يقبلها، أو أن الباحث لم يتدرج في صياغتها، بحيث يكون بعضها يمهد للبعض الآخر.

◦ قد يحدث العكس، بحيث تكون الأسئلة فيها إيحاءات بأنماط معينة من الأجوبة، فينساق وراء ذلك الطرف المستجوَب، فيخل ذلك بصدق الأجوبة.

◦ إن اللغة أهم عنصر في المقابلة، ولكن هذه حمالة وجوه، والكلمة تقبل تأويلات عدة، ولكن الباحث إن ألح في طلب الشرح فقد يؤثر ذلك سلبا على مفحوصه، وإن لم يطلب ذلك فربما أخذ الكلمات بمعاني ليست هي التي أرادها من تلفظ بها.

◦ إن المقابلة محادثة صناعية، ويصعب أن تصير محادثة طبيعية، لأن أحد الطرفين على وعي بأنه موضوع دراسة وفحص، وفي ذلك قد يحس ببعض التشييء، فيرفض ذلك، وأما الطرف الآخر فلا ينظر إلى المفحوص إلا كموضوع، وربما نسي أنه يتأثر بالوضع الصناعي، وإن لم يكن بالتصنع والإخفاء، فالاضطراب أحيانا والخوف والتوجس أحيانا.[28]

◦ إن المقابلة العلمية عملية تتطلب مهارات كثيرة، لا تتحقق إلا ببحث علمي من جهة وتدريب عليها من جهة أخرى. وليست هذه الملاحظات موانع لاستخدام المقابلة كمنهج للبناء النظري من جهة والتشخيص والعلاج النفسيين من جهة أخرى، إنما هي حدود يمكن تجاوزها، وفي ذلك يتم تطوير هذا المنهج العلمي.

28– عبد الرحمان العيسوي: أصول البحث السيكولوجي، ص. 82.

IV– المنهج العيادي (الاكلينيكي) La méthode clinique

1– التعريف

المنهج العيادي هو الدراسة العميقة للحالات الفردية، سوية كانت أو مرضية. وهو وسيلة لمعرفة التنظيم السوي للجهاز النفسي، كما أنه وسيلة علاجية للحالات المرضية. أي أنه يستخدم في علم النفس المرضي كما يستخدم في علم النفس السوي.

بخلاف المنهج التجريبي، الذي يوقف الظاهرة في الزمن، فالمنهج العيادي يواكب استمرارية الظاهرة لمدة طويلة، فيواكب بالملاحظة الأفراد المعنيين وهم يصارعون مشاكلهم، ثم يحاول معرفة ظروف حياتهم برمتها بقدر الإمكان، بحيث يتيسر تأويل كل حادث في ضوء الوقائع الأخرى، لأن جميعها يشكل كلا ديناميا.

يعرف المنهج العيادي أيضا بكونه المنهج الذي يقوم على الدراسة المتعمقة للحالات المرضية، التي تعاني من سوء التوافق والاضطرابات الانفعالية والنفسية والاجتماعية، في الطفولة والرشد والشيخوخة، ويهتم أيضا بحالات التوافق المدرسي ومشكلات التعلم والتوافق المهني، ويستخدم هذا المنهج في عيادات توجيه الأطفال والعيادات النفسية والتربوية وعيادات الإرشاد النفسي.

يعرفه الباحثان Lydia Fernandez و Jean Louis Pedinielliبالقول: «قبل كل شيء فالمنهج العيادي موجَّه للاستجابة لوضعيات واقعية معينة للذوات التي تعاني، وهو يتركز مبدئيا على الحالة le cas، أي على الفرد، ولكن دون أن يتم تعميم النتائج بالضرورة. إن المنهج العيادي يندرج ضمن نشاط علمي عملي يهدف إلى معرفة وتعيين بعض الحالات والاستعدادات والسلوكات [المرضية] بغرض اقتراح علاج معين (علاج نفسي مثلا)، قد يكون تدبيرا اجتماعيا أو تربويا أو شكلا من أشكال التوجيه يساعد الفرد أو يساهم في التقويم الإيجابي لسلوكه. وتكمن خصوصية هذا المنهج في رفضه الفصل بين المعلومات المحصل عيلها، ثم محاولته تنظيمها وترتيبها وتصنيفها بوضعها في سياق دينامي، هو سياق عيش الفرد.»[29]

2– خطوات المنهج العيادي

[29] – L. Fernandez et J. L. Pedinielli : La recherche en psychologie clinique, in : Recherche en soins infirmiers, Avril 2006, p. 43.

لا توجد خطوات دقيقة ونمطية، ولكن هذا المنهج يقوم من حيث المبدأ على ملاحظة المرضى وهم يعانون من مشكلاتهم، بغرض معرفة ظروف حياتهم كلها معرفة تامة. غير أن ملاحظة الأخصائي النفسي تكون في غاية الدقة، فغالبا ما يلاحظ أشياء في سلوك المريض لا يراها غيره، فيضع الفروض العلمية التي استشفها من الملاحظات الاكلينيكية من أجل فهم وعلاج الحالات.

بناء على التعريفات السابقة، يميز الباحثان **Lydia Fernandez** و **Jean Louis Pedinielli** بين مستويين اثنين متكاملين في المنهج العيادي: «يتمثل الأول في اللجوء إلى بعض التقنيات الحية في جمع المعلومات (مثل الاختبارات والمقاييس والجداول والمقابلات وغيرها) يراعَى فيها السياق الذي أخذت فيه. أما الثاني فيتمثل في الدراسة المعمقة والشاملة للحالة. ولا يرتد الاختلاف بين المستويين الأول والثاني من هذا المنهج إلى الوسائل المستخدمة ولا إلى الخطوات المتبعة، وإنما يرتد إلى الأهداف المسطرة والنتائج المحصلة: فالمستوى الأول يمدنا بمعلومات حول مشكل معين، أما الثاني فيهدف إلى فهم ذات معينة، وهو ما لا تنطوي عليه كل الوضعيات الاكلينيكية، خاصة تلك التي تهم البحث عن وقائع نفسية مرضية أو وقائع تكيف.»[30]

ومن هذا التحديد، يمكننا صياغة خطوات (خصائص) المنهج العيادي كالآتي:

- الملاحظة
- جمع المعلومات عن الحالة: إما بالفحص الطبي أو بالاختبارات النفسية
- تشخيص الحالة: تحديد مواطن القوة والضعف، الخلل والنظام...
- تفسير الحالة: بناء على الملاحظة والمقارنة
- وضع التصميم العلاجي: أي وضع الفرضيات التي يرى أنها تزوده بالحل
- اختبار الفرضيات: يطبق تصميمه العلاجي على الحالة.
- صياغة النتائج.

3- أدوات ووسائل المنهج العيادي

إن الحديث عن أدوات المنهج العيادي حديث عن المستوى الأول فيه؛ «مستوى جمع المعلومات الذي يفترض حضور الذات **la présence du sujet** التي تعاني المشكلة واتصالها بالباحث أو المعالج النفسي، ولكنه يفترض

[30] – **L. Fernandez et J. L. Pedinielli : La recherche en psychologie clinique, p. 43.**

أيضا حرية الباحث أو المعالج في تنظيم المعلومات المحصلة كما يشاء، على الأقل خلال اللجوء إلى بعض التقنيات (كاختبارات تحويل الأشياء، والألعاب، والرسوم مثلا). والتقنيات التي يتم اللجوء إليها إجمالا في هذا المستوى هي: المقابلة، والاختبارات، ومقاييس وسلالم التقييم (الجداول)، والرسم، واللعب، وتحليل النصوص المكتوبة، والملاحظة، وتحليل المعلومات. فعندما تستند هذه التقنيات إلى مادة موحدة، وعندما تستهدف الموضعة **objectivation** (الاختبارات، والمقاييس أو السلالم أو الجداول، والملاحظات الموحدة...)، نتحدث حينها عن "عيادة مسلحة **clinique armée**". وذلك في مقابل العيادة "الطبيعانية" **la clinique naturaliste** التي تسمى أحيانا "عيادة بيدين عاريتين **clinique à mains nues**".»[31] ويمكننا التركيز على ثلاث أساسية من هذه التقنيات، هي الملاحظة والمقابلة ومقاييس التقييم.

3-1- الملاحظة

وهي أداة هامة، يعتمدها المعالج النفسي في جمع المعلومات ودراسة سلوك المفحوص؛ ملاحظة المفحوص على طبيعته، من حيث تصرفاته واختياراته في مواقف معينة من الحياة، وتسجيل ذلك بدقة، ثم تحليل هذه الملاحظات والمقارنة والربط بينها في محاولة لتفسير ما تمت ملاحظته.

هذه الملاحظة قد تختلف من ملاحظة مرتجلة إلى ملاحظة منظمة مسبقا، ومن ملاحظة من خارج (مراقبة) إلى ملاحظة بالمشاركة، ومن ملاحظة في وقت محدد إلى ملاحظة في مجريات الحياة، ومن ملاحظة موضوعية إلى ملاحظة مرنة تمزج بين بين الذاتي والموضوعي.

3-2- المقابلة

تعتبر المقابلة أهم عنصر في المنهج العيادي، في جمع المعلومات والبيانات عن الحالة المفحوصة أو المدروسة. ومثلما رأينا ذلك سابقا، فالمقابلة في البحث النفسي هي محادثة بين الباحث وأحد الأفراد تتوفر فيه صفة الحالة التي يرغب الباحث في دراستها، وغرضه الحصول من هذا الفرد على معلومات بصدد هذه الحالة.

- تبعا للأهداف، يمكن التمييز بين مقابلة استطلاعية وأخرى تشخيصية وأخرى إرشادية وأخرى علاجية. في المقابلة الاستطلاعية، يكون الغرض هو جمع المعلومات، فيكون الباحث منصتا أكثر. وفي المقابلة التشخيصية، لتحديد موقع الخلل، يكون الباحث فاعلا بأسئلة محددة. وفي هذين النوعين معا يكون غرضه هو الفهم. أما في المقابلة الإرشادية، من أجل اختبار الفرضية العلاجية، فيكون موجِّها ملاحظا. وأما المقابلة العلاجية الهادفة للتقويم والعلاج، فيكون حينها آمرا ناهيا.

---

[31] – L. Fernandez et J. L. Pedinielli : La recherche en psychologie clinique,p. 43.

- تبعا لعدد المساهمين في المقابلة، فقد تكون المقابلة بين الباحث أو المعالج وفرد واحد أو مريض واحد، وقد تكون بين الباحث أو المعالج وجماعة من الأفراد أو المرضى.

- تبعا لشكلها، هناك المقابلة الحرة، وهناك المقابلة المقننة والمقيدة.

3-3- الاختبارات والمقاييس

وهذه من الأدوات الهامة في جمع المعلومات. والاختبارات النفسية عادة ما تصمم لوصف وقياس عينة من الجوانب في السلوك الإنساني. ومن هذه الاختبارات نجد:

- اختبارات لقياس الذكاء مثلا: كالرسم وحل بعض العمليات الحسابية أو غيرها.

- اختبارات ذاتية: يطلب فيها من المفحوص التعامل مع بعض الأشياء، كالصور والأدوات مثلا، أو يطلب منه تركيب أجزاء كل منفصل.

- من حيث المحتوى: نجد اختبارات عقلية معرفية، وأخرى مزاجية وأخرى عاطفية وأخرى لقياس الاستعداد الاجتماعي، وهنا يهم المضمون.

- من حيث الزمن: نجد اختبارات تقاس فيها سرعة المفحوص في الجواب أو رد الفعل، وأخرى يقاس فيها مدى تركيز المفحوص بغض النظر عن الزمن أو الجواب. هنا لا يهم المضمون بل السلوك.

4- مسلمات المنهج العيادي

إن الحديث عن مبادئ ومسلمات المنهج العيادي حديث في الأساس عن المستوى الثاني من مستويي هذا المنهج؛ من حيث هو منهج للدراسة المعمقة والشاملة للحالة. لذلك يمكن تعريف هذا المنهج انطلاقا من مسلمات ثلاث هي: «الدينامية **la dynamique** والتاريخ (أو التكوين) **la genèse** والشمول **la totalité**. فكل كائن بشري يعيش صراعا، سواء مع العالم الخارجي أو مع الآخرين أو مع ذاته، لذلك لم يزل يبحث عن حلول لهذه الصراعات، وفي ذلك دائما يتموقع في وضعية توازن هشة. إن كل كائن بشري هو كلية غير مكتملة **une totalité inachevée**، تتطور باستمرار، لذلك وجب أن يتم تفسير تصرفاتها على ضوء تاريخها. هكذا فالمنهج العيادي الذي يجد أصله في النهج الطبي قد تم إنشاؤه على نحو مستقل، في محاولة للجمع بين مطلب المحافظة على صرامة المقاربة العلمية

ومطلب استرجاع الفردانية أو التفرد **l'individualité** [التي تجاهلها المنهج التجريبي].»[32] ويمكننا توضيح المسلمات الثلاث للمنهج العيادي كالآتي:

- التصور الدينامي للذات: فهذا المنهج يرتكز على التصور الدينامي للشخصية، ويتوجه إلى الصراعات النفسية لدى الفرد، لأن ذلك يعكس مدى الانتظام الديناميكي داخل الفرد، فيحدد توافقه مع بيئته ومع المواقف المختلفة.

- الشمول والنظر إلى الذات كوحدة: فالنظرة العيادية لا تقتصر على جانب سلوكي معين للفرد، بل تضع كافة الاستجابات التي تصدر عن الشخص من حيث أنه كائن معقد، ومن حيث أنه يوجد دائما في موقف، ومن حيث أنه وحدة رغم ما فيه من تعقيد.

- التاريخ والنظر إلى الذات كوحدة متطورة في الزمان: لذلك فهو يستحضر البعد الزماني التاريخي للشخص، لأن السلوك في موقف يتضح على ضوء تاريخ حياة الشخص.

[32] – L. Fernandez et J. L. Pedinielli : La recherche en psychologie clinique, p. 43.